إعداد/ خالد دردير

يوسف بن تاشفين.. أسد المرابطين

2-1

بدأ بن تاشفين في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

يوسف بن تاشفين.. أمير الملثمين ومُنقذ الأندلس من السقوط

قد كتب الله لهذه الشريعة أن تنتصر على يد اثنين يجمع بينهما اسم يوسف: يوسف المشرق صلاح الدين يوسف بن أيوب، ويوسف المغرب يوسف بن تاشفين، الأول أعاد القدس إلى ديار الإسلام، والثاني أنقذ الأندلس وأقام شرع الله فيها وفي بلاد المغرب العربي قاطبة.

مولده ونشأته

هو ابو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي (-400 500هـ/ -1009 1106م)، وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام عبد الله بن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، فنما عزيزًا كريمًا في قومه.

تلقى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه المُحَنِّكين والفقهاء، ونما وترعرع وتربّى على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين، ونَبَغ في فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على الفقهاء فيها، وقام بها خير قيام.

مراحل حياته

بدأ نجم أسد المرابطين يوسف بن تاشفين في الظهور في معركة الواحات (448هـ/ 1056م) التي كان فيها قائدًا لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة عيّنه الأمير أبو بكر بن عمرو اللمتوني واليًا عليها، فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين (نسبة إلى مؤسسها علي بن عبد الله البجلي)، وقتل المرابطون أولئك الشيعة، وتحول من بقي منهم على قيد الحياة إلى السنة.

ثم جاء دور أغمات، كانت مدينة مزدهرة حضاريًا، إذ كانت أحد مراكز النصرانية القديمة، ومقرًا للبرابر اليهود، كان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن علي المغراوي، وتلقى يوسف التعليمات من الأمير أبي بكر بالزحف نحوها، ومهاجمتها، ودكها، ودخل المرابطون المدينة (449هـ/ 1057م).

وسار المرابطون وفي جملتهم يوسف نحو دولة برغواطة «الدولة الكافرة الملحدة» ونشبت المعارك بين الفريقين، وأصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على اثرها؛ فكان استشهاد الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء، وناب ابن عمه يوسف على المغرب، ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم الناس بزعامته، وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكتاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة، وعلل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه وتجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية قائلا:

«يا يوسف، إني قد وليتك هذا الأمر وإنّي مسئول عنه: فاتق الله في المسلمين، واعتقني واعتق نفسك من النار، ولا تضيّع من أمر رعيتك شيئًا: فإنك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك».

إمارته للمرابطين

وبعد أن صار يوسف قائدًا وأميرًا للمرابطين، قام نحو المغرب الشمالي؛ لينتزعه من أيدي الزناتيين، واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيدًا من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يَدخل مدينة فاس صلحًا عام 455هـ ثم تمرّد أهلها عليه إلا أنه استطاع إخماد جميع الثورات التي قامت ضد المرابطين بجهاده وكفاحه المستمر، حتى تم له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام (460هـ/ 1067م).

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربه عليها بجيش قوامه مائة ألف جندي عام (462هـ/ 1069م)، فقضى على شوكة مغراوة وبني يقرن وسائر زناتة، ونظم المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام 463هـ إلى بلاد مغوية وفتحها، واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة.

توحيده للمغرب العربي

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام (465هـ/ 1072م) لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان، وفي عام (467هـ/ 1074م) استولى على جبل غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا، وجعلها حدًا فاصلا بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كلّ مَن ظنّ فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصًا له مرتاحًا إلى طاعته محلمئنا إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير توّاق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة «تازاء ثغرًا منيعًا بينه وبين زناتة؛ ولذلك اعتبر المؤرّخون عام 467هـ/ 1074م فاصلا في تاريخ الدولة المرابطية؛ إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى الشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

وسيّر يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشًا من اثني عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفًا من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام 470هـ وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيش وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة، وقتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت.

وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسّعه نحو الشرق لمطاردة

دخل بالمرابطين أرض الأندلس واستقبله أهالي إشبيلية استقبال الفاتحين

زناتة التي لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تهدّد دولة المرابطين في المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائي التي استطاعت أن تحقق أهدافها، وتهزم جيش تلمسان المعادي وتأسر قائده معلى بن يعلى المغراوي الذي قتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش، ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضي وضم مدينة تكرور.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر، وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي حكمها بنو حمّاد -فرع من صنهاجة- وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعًا لا يزال إلى اليوم ويُعرف بالجامع الكبير.

وعاد إلى مراكش عام 475هـ/ 1081م، وبذلك توحّد المغرب الأقصى بعد جهاد استمرّ ثلاثين عامًا، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية، وفي عام 476هـ/ 1083م وجّه الأمير يوسف ابنه المعزّ في جيش إلى سبتة لفتحها؛ إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، كان يحكمها بعد وفاة الحاجب بن سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى، فحاصرها المعزّ برًا وبحرًا، ودارت معركة بحرية طاحنة، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبتة، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقي القبض عليه، وكان ذلك عام 477هـ/ 1084م.

الأندلس وملوك الطوائف

بعد هذه الجولة الجهادية الموفّقة تم توحيد المغرب الأقصى بجميع نواحيه بعد عمل جادّ مستمرّ، وأصبحت الدولة المرابطية قوّة لا يستهان بها تُشكل خطرًا على النصارى في الأندلس، وملجأ وحيدًا للمسلمين في الأندلس، حيث إن النصارى استفحل خطرهم في الأندلس، حيث قامت للمسلمين دويلات في كل مدينة وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت فيما بينها، وعُرف حكامها بـ«ملوك الطوائف» وتلقبوا بالقاب الخلفاء كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب، ووصف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق فقال:

مما يزهدني في أرض أندلس
سماع معتضد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهرّ يحكي انتفاضا صولة الأسد

ولما كان الوضع في الأندلس على هذا السوء، من التفرق والتشرذم، أعمل ملك الصليبيين فيها ألفونسو السادس سيفه وسنانه، حتى أصبح ملوك الطوائف يبعثون بالجزية إليه كل عام، فضج ملوك الطوائف من تجبره وغطرسته، وقتل المعتمد رسل ألفونسو التي جاءت لتحصيل الجزية، فأعد ذلك الصليبي العدة لإفناء المعتمد وباقي ملوك الطوائف.

ومن هنا أرسل ألفونسو برسالة إلى الأمير يوسف بن تاشفين يهزأ منه قائلا: «فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتني فتلك نعمة جُلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت ليَ اليد العليا عليك، واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة».

فكان رد الأسد المرابط يوسف بن تاشفين مدويًا، يقطر عزة وإباءً مع قلة حروفه، فكتب على ظهر الرسالة: «الجواب ما ترى لا ما تسمع».

معركة الزلاقة ودخول المرابطين الأندلس

يدخل يوسف بن تاشفين والمرابطون أرض الأندلس، ويدخل إلى إشبيلية والناس يستقبلونه استقبال الفاتحين، ثم يقصد إلى بطليوس حيث كانت على مقربة من الزلاقة التي كان قد نزلها ألفونسو السادس، فتوجّه إليه أمير المسلمين بجيوشه، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضا، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير، وقصده المطوّعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى ألفونسو فجمع عساكره، وحشد جنوده، وسار من طليطلة.

وبدأ يلحق بركب يوسف بن تاشفين المجاهدون المتطوعة من قرطبة وإشبيلية وبطليوس، وهكذا حتى وصل الجيش إلى الزلاقة في شمال البلاد الإسلامية، وعدده يربو على الثلاثين ألف رجل.

ولا نعجب فهذه هي أهمية القدوة وفعلها في المسلمين، وصورتها كما يجب أن تكون، تحرّكت مكامن الفطرة الطيبة، وعواطف الأخوّة الصادقة، والغيْرة على الدين الخاتم، تلك الأمور التي تُوجد لدى عموم المسلمين بلا استثناء، وتحتاج فقط إلى مَنْ يُحرّكها من سباتها.

التحرك نحو الزلاقة

تحرّك الثلاثون ألف رجل بقيادة يوسف بن تاشفين ليصلوا إلى الزلاقة، وهو ذلك المكان الذي دارت فيه موقعة هي من أشهر المواقع الإسلامية في التاريخ.

كان النصارى قد استعدُّوا لقدوم يوسف بن تاشفين فجمعوا عددًا ضخمًا من المقاتلين، بلغ في بعض التقديرات أكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل، على رأسهم ألفونسو السادس بعد أن جاءه العون من الممالك النصرانية فرنسا وإيطاليا وغيرها، وقدم ألفونسو السادس يحمل الصلبان وصور المسيح، وهو يقول: بهذا الجيش أقاتل الجن والإنس، وأقاتل ملائكة السماء، فهو يعرف تمامًا أنها حرب صليبية ضد الإسلام.

الرسائل والحرب الإعلامية رسالة ألفونسو إليه

كان ألفونسو السادس من قبل هذا أرسل إلى يوسف بن تاشفين رسالة كلها غرور واستعلاء، وهذا نصها:

باسمك اللهمّ فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته، الرسول الفصيح، أما بعدُ: فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب، ولا ذي عقل لأرّب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمتُ الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحُكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفّف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا، وقد حُكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عامًا بعد عام، تُقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربُّك، ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقحّم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وألقاتلك في أعزّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مَثُلتْ بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملثمين والحكم على البرّيْن، والله تعالى يُوفّق للسعادة ويُسهّل الإرادة، لا ربَّ غيره، ولا خير إلا خيره، إن شاء الله تعالى.

رسالته إلى ألفونسو

فلما تمّ عبور جيش المرابطين إلى الأندلس أرسل يوسف بن تاشفين برسالة إلى ألفونسو السادس يقول له فيها: بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» [الرعد: 14، غافر: 50] وخيّره يوسف بن تاشفين بين الإسلام والجزية والحرب.

تسلّم ألفونسو السادس الرسالة وما أن قرأها حتى استشاط غضبًا و«جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه وكفره، وقال: أبطل هذه المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟!» ثم أرسل ليوسف بن تاشفين متوعدًا ومهددًا: فإني اخترت الحرب، فما ردُّك على ذلك؟ وعلى الفور أخذ يوسف بن تاشفين الرسالة، وقلبها وكتب على ظهرها: الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من اتبع الهدى. فلما وقف ألفونسو على هذا الجواب ارتاع له، وعلم أنه بلي برجل لا طاقة له به.

قال صاحب (الروض المعطار): «ولما تحقق ابن فرذلند – ألفونسو السادس– جواز يوسف استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجالقة والإفرنجية وما يليهم ما لا يُحصى عدده، وجعل يُصغي إلى آراء المسلمين متغيِّظًا على ابن عباد، حانقًا ذلك عليه، متوعّدًا له، وجواسيس كل فريق تتردّد بين الجميع، وبعث –ألفونسو السادس– إلى ابن عباد أن صاحبكم يوسف قد تعنّى من بلاد بعيدة وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعبًا، أنا أمضي إليه وألقاكم في بلادكم: رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم. وقال لأهل ودّه ووزرائه: إني رأيت إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فتأجروني بين جدرها ربما كانت الدائرة عليّ: فيكتسحون البلاد، ويحصدون مَن فيها في غداة واحدة، لكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت عليّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صون لبلادي، وجبر لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون منهم فيّ وفي بلادي إذا تأجروني في وسطها.

محاولة ماكرة من ألفونسو السادس

وفي محاولة ماكرة لخديعة المسلمين أرسل ألفونسو السادس يُحذّرُ يوم المعركة، فأرسل أن: غدًا الجمعة، ولا نُحبُّ مقاتلتكم فيه؛ لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثيرون في محلّتنا، ونحن نفتقر إليهم، وبعده الأحد عيدنا، فلنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين.

تسلّم يوسف بن تاشفين الرسالة، وكاد ينخدع بها لأنه كان يعتقد أن الملوك لا تغدر، ولقد كانت هذه أولى جولاته مع النصارى، إلا أن المعتمد بن عباد فهم الخديعة ونبّه يوسف بن تاشفين إلى ما قد يكون فيها من الغدر.

رؤيا ابن رميلة

بحذر تامّ لم يلتفت يوسف بن تاشفين إلى ما جاء في رسالة ألفونسو السادس، وقام بتعبئة الجيش وتجهيزه يوم الخميس، ووضعه على أتم الاستعداد.

إنها لحظة لم يتذوّقها الأندلسيون منذ سنوات وسنوات في أرض الأندلس، يقوم جيش مسلم ويستعد لحرب النصارى من بعد سنوات الذل والهزيمة والجزية، ولا شك أنها لحظات تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق، كاشتياقها إلى الشهادة، ويأمر يوسف بن تاشفين بقراءة سورة الأنفال، ويأمر الخطباء بتحفيز الناس على الجهاد، ويمرّ هو بنفسه –رحمه الله– على الفصائل ينادي ويقول: طوبى لمن أحرز الشهادة، ومَنْ بقي فله الأجر والغنيمة. وجاء في الروض المعطار: ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والعُبّاد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر، ويُحَذّرونهم الفرار.

وفي ليلة الجمعة كان ينام مع الجيش شيخ كبير من شيوخ المالكية في قرطبة، وهو الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي، والذي قال عنه ابن بشكوال في الصلة: كان معتنيًا بالعلم، وصُحبة الشيوخ، وله شعر حسن في الزهد، وكان كثير الصدقة وفعل المعروف، وكان أبو العباس هذا من أهل العلم والورع والفضل والدين.

لم تكن مهمّة الشيخ يومها هي مجرّد الجلوس في المسجد، أو إلقاء الدروس، أو تعليم القرآن فقط، فقد كان هذا الشيخ يفقه أمور دينه، ويعلم أن هذا الجهاد هو ذروة سنام هذا الدين، وفي هذه الليلة يرى ابن رُمَيلة هذا رسول الله وهو يقول له: «يا ابْنَ رُمَيلة، إنكمْ مَنْصُورُون، وإنّك مُلاقينا».

يستيقظ ابنُ رُمَيلة من نومه وهو الذي يعلم أن رؤية الرسول في المنام حقّ؛ لأن الشيطان لا يتمثل به : ففي البخاري بسنده عن أنس قال: قال النبيّ : «مَنْ رآني في المنام فقد رآني؛ فإنّ الشيطان لا يتخيّل بي، ورؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة».

يقوم الشيخ فرحًا مسرورًا، لا يستطيع أن يملك نفسه، فقد بشّره الرسول ، وسيموت في سبيل الله، فالحسنيين أمام عينيه، نصر للمؤمنين وشهادة تناله، فيا لها من فرحة! ويا له من أجر!

قاد بن تاشفين معركة الزلاقة وهزم ألفونسو شر هزيمة